ربع قرن مرحى للآداب

ذات مساء بغدادي جميل فاجأت اخانا الدكتور سهيل ادريس ، بقولي : هل تعلم انك نشرت لي اول قصة اكتبها في حياتي ؟

وبانت في عينيه امارات شك وعلامات دهشة ! فهل يعقل لشاب مثلي لما يزل نكرة في عالم الادب الرحب ، ان يتجاوز الصحف السيارة وزوايا القراء فيها وبريد محرريها الى مجلة الآداب « بكل وزنها » بقفزة واحدة بينما تصله كل يوم عشرات القصص يغربلها ويمحصها بخبرته الطويلة وباعه غير القصير في عالم القص والرواية ؟. وانتحى بي الدكتور جانبا ليتأكد من مصداقيتي ، فلعلي انطوي على اديب فنان او كذاب اشر .. خاصة وان العهد قد تباعد بتلك الاقصوصة وتتالت على الآداب مجلة ودارا وقضية احداث جسام .. ولاول مرة يغلبني التواضع غلبة كاملة وهزمني الدكتور حين غيرت مجرى الحديث بسرعة نحو موضوع يقلقه وهو وضع المجلة التي توقفت

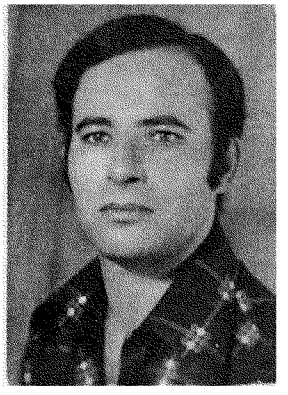

سهيل الخالدي

شهورا خلال الاحداث اللبنانية التي كنا نرغب لها ان تكون ثورة عربية جديدة .

غلبني التواضع بعد ان كدت اقول : كم تتحمل ايها الدكتور من تبعية شقائي في الادب والحياة وشقاء الادب والحياة بي. ولكل ذلك قصة لا اجد مانعا من استذكارها الآن في بعض من جوانبها العمومية :

كنت طفلا اعدو بالسروال القصير في حارتنا الفارقة في البؤس حتى النخاع واقاوم شهيتي الحلوى التي يتفنن الصناع في تلوينها ، حتى اتمكن من توفير « تعاريفها » لآخر الاسبوع فاشتري مجلة اطفال اتيه بها اسبوعا كاملا على اقراني .. وفي اسبوع من هذه الاسابيع التقيت مجلة الآداب عروسا معلقة في مكتبة.. تصفحتها وقرأت اسم الدكتور فأعجبني ذلك التطابق بين اسمينا الاولين .. كان ثمنها ثروة لا يمكن لوالدتي الحصول عليها .

— هل تريد شراء المجلة ؟ قال صاحب المكتبة

ـ ولكني لا املك ثمنهـا

ـ هل تقدر على القراءة فيها ؟ وقرأت على الفـور وسط دهشته .

ـ في اي صف انت ؟ سأل احد الزبائن الذيـن يتبضعون لاطفالهم كتبا واقلاما .

ـ في الثالث الابتدائي . قلتها بفخر حامل اللبـانس في هاتيك الاوقـات .

ووسط دهشتي نقد الرجل المكتبي ثمن المجلة وهرولت الى امـي منتصرا ناسيا ان اشكر الرجل الذي كـان من بعض جيراننـا .

وقبل انقضاء حول او اكثر وجدتني مرجعا ادبيـا في الصف فقد كان لدينا معلم عربية به لوثة شعر عجيبة

ـ هل اشتريت الآداب يا ولد ؟

ـ نعـم

ـ هاتهـا

وبعد فترة اكتشفت ان الاستاذ لا يعيد ما يتسلفه فصارت نعمي لاءا رغم دسائس الاطفال.. واصبحت أعتبر نفسي اديبـا .. اولست من قراء الآداب المواطبين ؟!

وكبرت قليلا « بضعة سنتمترات » فصرت اقـرأ كتب الدار وتعلقت بالادب كمصير وهدف الى أن جررت امي ذات يوم الى المكتبة لتشتري لـي روايـة الحـب اللاتيني ، اشترتها ثم صفعتني ، فقد كان ثمنها مبلغـا خرافيا ! لكنهـا بهذه الصفعة وضعت حدا لترددي على المدرسـة فقد قررت ان اعمل واتخلص من توسلاتي وهكذا انهيت السنة الابتدائية السادسة قاطعا صلتي بالمدرسة النظاميـة مفضلا عليهـا المدرسة الليلية .

وللحق اقول ان والدتي لم تستفد شيئا من عملـي فكل اجري أدفعه الى اصحاب المكتبات بعـد ان نخرتني سوسة الادب والقراءة هوايتي الوحيدة حتى اليوم .... ونظرت الي تلك العجوز كولد لا يرتجى منه نفع او فائدة واسلمت امرهـا الى الله . الى ان كان ذات يوم جئتهـا راجفا خائفا اطلب اليهـا اخفاء مجلة الآداب واخفيتهـا في قعر الصندوق الخشبي الذي نضع عليه فراشنا ... وحين اعلمتهـا السبب كادت المسكينة تفقد تماسكها .. فقد شنق ذلك المكتبي الذي كان يحتفظ لي بالآداب بأي ثمن حتى مـا يمنع من اعدادها .. شنق بتهمة القيام بعملية اغتيال سياسي هزت اركان الوطن العربـي في حينه . وشعرت فعلا بأهمية وخطورة الفكر الوطني الذي نقرأه في الآداب فها هو يجر بعض « متعاطيه » الى اعواد المشانق ودخلت في تعقيد نفسي زاده عمقا اتجاهي لقراءة الكتب الفلسفية التي تترجمها دار الآداب وخاصـة الفرنسية منها ..

وانعقدت بيني وبين روادالمكتبات صداقات ونقاشات تبدأ دائما بالآداب وطموح الكتابة فيهـا وبعضهم الان يشار اليه بالبنان وله في المجلة صولات وفي الدار مطبوعات وفي العمل الوطني التقدمي ممارسـات وممارسات .. كانت الاداب زوادتنا .. صحيح انها لم تعد الوحيدة في جعبة كتبنا وقراءاتنا ولكنهـا كانت تحظى دائما باهتمامنا الاستثنائي والدائم .. وقبيل النكسة الحزيرانية بأشهر معدودات استدعتني دائرة المخابرات للتحقيق فكان اول خبر بعثته لتلك العجوز التي لم تشاهدمني مايسر طلبا بأن تتلف المكتبة وما ان عدت بعد ساعات خلتها دهرا جلست على رمـاد كتبي تطل منه بعض عناوين كتب ومجلات لـم تحترق جيدا وشاهدت بقايا عنوان اول عدد اشتريته من الآداب .. انه زمن طويل يعـود لمنتصف الخمسينات وتراءت لي فوق الرماد جثة ذلـك المكتبي تتأرجح معلقة وسط المدينـة .

صار الكثير من الزملاء كتابا مرموقين في الآداب وحتى اليوم لا يخلو عدد منها من اسم زميل منهم او اكثر ، الا ي بقيت على تلـك القصة ايتيمة وبعضهم اسقط من حسابه اعتباري قصاصا ليس بحساب النشر فحسب بل وبحساب التأليف فلما أزل كما كنت لست بمكتار ولست بمغامر .. فقد اورثتني علاقتي بالآداب نظرة جدية صارمة الى الفكر الادبـي والوطنـي .

وقلصت هذه النظرة من اندفاعاتي ومن رؤية اسمي بالبنط العريض ، حتى اني آثرت ان اقذف اسمي فـي الساحة على كتاب غير ادبي تهيبا وتحسبا من المغامرة بعمل ادبي تافه . وحين شعرت بأن الاوان قد آن لمغامرة ادبية جمعت تلك الاقاصيص التي نشرت على مدى السنيـن الفارطة فوجدتها قليلة جدا ، ولكني وجدت مع كل قصة شهادات يحق لي أن اعتز بهـا فقد كتبهـا ادباء لهـم اصواتهم المسموعة ونقاد لهم رؤاهم المعروفة .

وهكذا فان صاحب الآداب يكون قد علمنـا في هذا النصف الاخير من قرننا الصاخب الاخلاص لقضية الادب بعـد ان سيطرت عليه الانشائية فـي النصف الاول . والاخلاص لقضيـة الادب مسألة تدخل في صلب الوعـي القومي ـ الطبقي وجذر التربية الايديولوجية التي يضخها الاديب لعموم قرائه عبر ابداعه الوجداني ، وانه لامر بالغ الدلالة ان ينظر الاديب العربي الشاب ـ الذي ترعـاه الآداب منذ ربع قرن ـ الى هذه التربية تلـك النظـرة الجدية ، وفي هذه الفترة بالذات حيث ترعرع جيلنا وسط توتر قوى التاريخ في هذا الوطـن العربي المبتلى برجعية خائنة حتى العظم وبورجوازية صغيرة مائعة مترددة عـن النهوض بدورهـا التاريخي كما يجب

كم أنا فخور بانتمائي الفاسي والحاد الى الطبقـة الاكثر جذريـة والاكثر وطنية في امتنا العربية ، هـذا الانتماء الذي لا يهادن ولا يستسلم ولا يعرف التكتيك على صعيد الفكر ـ والادب احدى قوائمه ـ او العمل الوطني ، واني لفخور ايضا أن تكون الآداب عبر مسيرتها الطويلـة قد صاغت الكثير من افكارنا الادبية والوطنية .. فتحية لها ومرحى لسهيل ادريس مناضلا على الجبهـة الثقافية الوطنيـة التقدميـة .